موقف الإسلام من القومية



«يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند ا أتقاكم» (الحجرات ـ 13).

تتناول آية سورة الحجرات موقف الإسلام من مسألة (القومية) في ثلاث نقاط:

1 ـ الجانب التكويني من مسألة القومية، وهو قوله تعالى:

«يا أيّها الناس أنّا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل».

2 ـ الجانب الوظيفي من هذه المسألة، وهو قوله تعالى:

«لتعارفوا».

3 ـ الجانب القيمي من هذه المسألة، وهو قوله تعالى:

«انّ أكرمكم عند ا أتقاكم».

وسوف نتناول في هذه الدراسة ان شاء ا هذه النقاط الثلاثة من البحث باختصار.

***

1 ـ الجانب التكويني

«انّا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل».

الجزء الأول من الآية الكريمة تقرر ان مسألة تعددية الشعوب والقبائل قائمة في صلب التكوين، وليس هذا الاختلاف والتعدد في الأقوام والشعوب والقبائل مما انتحله الإنسان واختلقه، مما ليس في صلب التكوين.

ففي هذه الآية ينسب القرآن الكريم مسألة التعددية في الشعوب والقبائل إلى ا تعالى مباشرة «وجعلناكم شعوباً وقبائل». وهو صريح في نسبة هذا الأمر إلى ا تعالى.

كما ان الآية الكريمة تعطف جملة «وجعلناكم شعوباً وقبائل» على قوله تعالى: «انّا خلقناكم من ذكر وانثى» وهو صريح في ان مسألة تعدد الشعوب والقبائل من أمر ا تعالى، وما كان من أمر ا تعالى فهو قائم في صلب التكوين.

وفي سورة الروم يعد القرآن اختلاف الألوان والألسن من آيات ا تعالى.

يقول تعالى: «ومن آياته خلق السّموات والأرض * واختلاف ألسنتكم وألوانكم انّ في ذلك لآيات للعالمين».

العوامل الثلاثة المكونة للشعوب والقبائل

تدخل في تكوين الشعوب والقبائل ثلاثة عوامل وهي:

1 ـ العوامل المكونة لشخصية الإنسان داخل النفس من الفطرة، والغريزة، والضمير، والعقل، والإرادة.

2 ـ البيئة والمحيط والوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه الشعوب والقبائل، وتقصد بهذا العامل مجموعة العوامل التي تؤثر في بناء وتكوين شخصية الإنسان خارج النفس، وتدخل في ذلك الرسالات الإلهية والثقافة والتقاليد والاعراف والخبرات العلمية التي تتكون في البيئة بسبب العوامل المختلفة الفاعلة في حياة الإنسان من الحرب والسلم، والتجارة، والفقر، والثراء، والجدب، والخصوبة، والمناخ، والأنظمة الحاكمة، والأمن، والخوف، والمرض، والسلامة، والأوضاع الطبيعية الأخرى في البيئة...

وهذه مجموعة واسعة من العوامل تدخل عبر التاريخ في تكوين الحالة الحضارية والأعراف، والتقاليد، والقيم، والأخلاق، وأصول العلاقة الاجتماعية والزوجية، ونمط الحياة لكل بيئة، ولكل شريحة اجتماعية (من الشعوب والقبائل والأقوام)، تسكن هذه البيئة أو تلك، كما تدخل في تكوين الخبرات الاجتماعية لهذه الشرائح.

وتتفاعل العوامل من الطائفة الأولى والعوامل من الطائفة الثانية في تكوين شخصية الشرائح الاجتماعية.

ولنُسمّ الطائفة الأولى من العومل بالعوامل الداخلية، والطائفة الثانية بالعوامل الخارجية.

ان التفاعل الذي يتم بين هاتين الطائفتين من العوامل يؤثّر في بلورة وتكوين شخصية الشعوب.

وليس من شك ان الطائفة الأولى من العوامل لها دور فاعل ومؤثر في تصفية وتنقيح العوامل من الطائفة الثانية، إلاّ ان من الحق أيضاً أن الطائفة الأولى تتأثر بالطائفة الثانية أيضاً.

وتتبلور وتتكون شخصية الشعوب الحضارية بفعل هذين العاملين.

3 ـ الوراثة: وهذه ثالثة العوامل المكونة للشعوب والأقوام والقبائل.

ومهمة هذا العامل نقل المقومات التي تكون المقومات الحضارية للأمة من جيل إلى جيل.

ودور الوراثة ليس فقط نقل الحالة الحضارية والعلمية من جيل إلى جيل، بل تتجاوز هذه المهمة إلى تعميق وتاصيل الحالات الحضارية، والخبرات العلمية، فإن الجيل الذي يستلم المواريث الحضارية والعلمية يقوم بدور تاصيل وتعميق وتكميل هذه المواريث ليسلمها إلى الجيل الذي يأتي من بعده من نفس الشريحة الاجتماعية.

ولولا جسور الوراثة في الحضارة والعلم.. لم يتمكن الإنسان أن يتجاوز المراحل الأولى البدائية من تاريخه الحضاري والعلمي.

وكل ما عندنا اليوم من المواريث الحضارية والعلمية انتقل إلينا عبر هذه الجسور، وهذه العوامل الثلاثة بالاجمال هي التي تكوّن الشخصية الحضارية والعلمية للشعوب والأقوام والاُمم.

وبناءً على هذا التصوّر فإنّ كل شريحة اجتماعية من شعب أو قبيلة يعتبر تراكماً من المواريث الحضارية والعلمية، تكونت وتبلورت، وتأصلت، خلال التاريخ، وانتقلت من جيل إلى جيل بفعل عامل الوراثة.

وكلمة (الشعوب والقبائل) في الآية الكريمة تعني في التحليل العلمي لهذه الكلمة هذا التراكم من المواريث الحضارية والعلمية، بما في ذلك اللغة، فإن اللغة عامل أساسي في التعبير عن هذا الميراث الحضاري والعلمي وفي نقل هذا الميراث، وهذا هو تعريفنا الذي نتلزم به، للأقوام والشعوب. وبناءً على هذا التعريف فإن القومية حالة حضارية وثقافية، ولغة معينة للتعبير عن هذه الحالة الحضارية والثقافية.

***

2 ـ الجانب الوظيفي

«لتعارفوا» اذا عرفنا ان تعدد الأقوام والشعوب مسألة حقيقية، داخلة في صلب (التكوين) ومما جعله ا تعالى في صلب حياة الإنسان الإجتماعية. تنتقل إلى الجانب والوظيفي من هذه القضية.

فقد نهض الإسلام بدور توجيهي لتوظيف هذه الحالة من العددية التكوينية في الشرائح الإجتماعية لتكامل الإنسان من خلال عملية التلاقح الحضاري القائمة على أساس التعارف والتلاقي والتعامل.

والى هذا التوظيف تشير الآية الكريمة من سورة الحجرات بقوله تعالى: «لتعارفوا».

فإن للتعارف مفهوم واسع، يشمل المراحل المختلفة للقاء والتلاقح الحضاري، بدءاً بالتعارف، ومروراً باللقاء، والتعامل، والتعاون، وتبادل الخبرات، والامكانات، والتبادل الثقافي، والحضاري.

وهذه المفاهيم والمعاني منطوية جميعاً في كلمة «التعارف» فإن التعارف يستتبع العلاقة، بمختلف اشكالها من العلاقات الاقتصادية إلى السياسة والاجتماعية.

والعلاقة تستتبع تبادل الخبرات، والكفاءات، والامكانات، والثقافات، والقيم، والأعراف، والمسائل

الحضارية الاخرى.

وبذلك فإن (التعارف) الذي تشير إليه الآية الكريمة هو أساس (التلاقح الحضاري)، والتلاقح في سنن الله تعالى في الكون أساس للتكامل.

والإنسان يتكامل من خلال هذا التلاقح والأخذ والعطاء، فيأخذ من الآخرين أفضل ما عندهم، كما يأخذ الآخرون منه أفضل ما عنده من ذلك كلّه.

وكذلك يصحح الإنسان أخطاءه بما يصح عنده من أعمال الآخرين، ويصحح الآخرون كذلك أخطاءهم بما يصح عندهم من أفعاله، وهكذا يتكامل ضمن منهج اللقاء الحضاري الذي يصفه القرآن بـ(التعارف).

ويوظف الإسلام هذه الحالة من التعددية في الشعوب والأقوام لتكامل الإنسان من خلال منهج (التعارف).

ولو ان الناس كانوا كتلة واحدة، وثقافة واحدة، وحضارة واحدة، ولغة واحدة لم يجد الإنسان مثل هذه الفرصة التي أتاحها الله تعالى له للتلاقح والتكامل الحضاري من خلال منهج (التعارف).

المنهج القرآني لـ(التعارف)

والقرآن الكريم يقرر لمبدأ (التعارف) منهجاً علمياً متكاملاً.

وهذا المنهج نجده في سورة الزمر في صفة المؤمنين:

«الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه».

وهذه الآية الكريمة تنظم عملية التعارف والتلاقح الحضاري والتكامل من خلال نقطتين:

1 ـ الانفتاح.

2 ـ الانتقاء.

والاستماع هو الانتفاح، وهو مما يحبه الله تعالى، فليس من صفة المؤمن ان ينغلق على قول، ويصم اذنه عنه.

ولا يضر المسلم، إذا تسلح بالوعي والبصيرة ان ينفتح على قيم الآخرين وثقافاتهم، واعرافهم، وأصولهم، ومفاهيمهم، فضلاً عن خبراتهم وعلومهم.

فإن الانفتاح من خصال المؤمنين.

والإنغلاق من خصال الكافرين الذين يأخذون أفكارهم وأصولهم عن تقليد وعن غير وعي:

والله تعالى يذم المقلدة الذين ينغلقون على دعوة الله ورسله، ويقتصرون على اتباع الآباء، ولو كانوا على غير هدى.

يقول تعالى: «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله والى الرّسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا * أو لو كان آباؤكم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون» (المادة ـ 104).

وعن لسان أنبياء الله يقول القرآن:

«قال موسى اتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا؟ ولا يفلح السّاحرون، قالوا أجئتنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين» (يونس ـ 78).

إذن القرآن يؤكد حالة الانفتاح والاستماع إلى الآخرين، ويشجب ويرفض حالة الانغلاق. وهذه هي النقطة الأولى في منهج التعارف وهو قوله تعالى في آية الزمر «الّذين يستمعون القول».

والنقطة الثانية من منهج (التعارف) هو انتقاء الأحسن وهو قوله تعالى: «فيتبعون أحسنه».

ولابد في التلاقح الحضاري والتكامل من (الانفتاح) ومن (الانتقاء) معاً والانتفاح من دون الانتقاء لا ينفع.

ولا يتم الانتقاء من دون الوعي والتعقل وإذا كان التعارف والانفتاح والانتقاء هو التوظيف الصحيح لمسألة تعددية الأقوام والشعوب في المنهج الإسلامي، فإن التوظيف الخاطىء لحالة تعددية الأقوام والشعوب هو ان ينحاز الإنسان إلى قومه وشعبه في حق أو باطل.

مفتاح (العالمية) الجديدة

واية سورة الزمر مفتاح التصور الإسلامي الجديد للعالمية.

وهذه المفتاح يتكون من جزئين: الانفتاح والانتقاء الواعي.

وهذا لمفتحا يفتح عقل الإنسان وقلبه على التاريخ وكل العالم، ولا يبقى أمام عقله وقلبه باباً موصداً، لا يحق له أن يدخله. بشرط ان يكون هذا الانفتاح عن وعي وتعقل، وليس فقط لا تلغي النظرية الإسلامية العالمية تعددية الأقوام والشعوب، بل تعتمدها، وتعترف بها، وتنطلق منها، وتضع على أساسها نظريتها الجديدة في العالمية، وتوظّفها وتحقق هذه النظرية ضمن منهج علمي صحيح، يقوم على اساس من الانفتاح والانتقاء الواعي.

***

3 ـ الجانب القيمي

«انّ أكرمكم عند ا أتقاكم».

ماهي القيمة؟

نقصد بالقيمة المقاييس والأسس التي نستطيع أن نميز بها الناس، ونقدم منهج ونؤخر من نقدم ونؤخر، عندما يتطلب الأمر منا التقديم والتأخير فانّ كثيراً من المواقف والأعمال الاجتماعية، والسياسية، والحركية، وغيرها تضطرّنا إلى الموازنة بين الناس في تقديم الناس بعضهم على بعض عندما نضطر إلى التقديم والتأخير، أو في الفصل والحسم، في الامور، عندما يتطلب الأمر منا الحسم والفصل، والمعايير والأسس التي تتم بها هذه الموازنة والفصل والحسم هو ما نقصده بالقيم. كما ان الإنسان لابد ان يسلك بنفسه طريقاً للتكامل، ولابدّ أن يسلك لمن يريد أن يربيه وينشؤه طريقاً للتكامل.

والنقاط والغايات التي يطلبها الإنسان في هذه المرحلة إلى الكمال والى ا تعالى هي (القيم)، وبناء على ذلك فإن التقييم، مسألة هامة في حياة الإنسان وتختلف المذاهب والمدارس في أنظمة التقييم فما هو رأي الإسلام في التقييم؟ هل هو الانتماء الإنساني؟ أم الانتماء العشائري؟ أم الانتماء القومي؟ أم العلم، أم المال؟ أم القوة؟ أم الفضيلة؟ وما هي الفضيلة التي تعتبر أساساً للتقييم؟

وهذه القيم هي الأساس في (الحب) و(البغض) و(الموقف) و(الموازنة) و(التقديم) و(التأخير) و(الفصل) و(التربية) وفي كثير من شؤون الإنسان وحياته.

نظام التقييم في الإسلام

للإسلام نظام خاص للتقييم. وهذا النظام يختلف اختلافاً جوهرياً عن سائر الأنظمة التقييمية في الحضارات الجاهلية ولو اننا عرفنا النظام العام للتقييم في الإسلام لا نتردد كثيراً في مفردات الحالات التي تطلب منا رأي الإسلام فيها ولهذا النظام وجه ايجابي وأخر سلبي ومن دون ان يقترن هذان الوجهان ونوظفهما معاً لا نستطيع أن نفهم النظام الذي يرسمه الإسلام لتقييم الأفراد والجماعات والحالات الإنسانية.

وسوف نستعرض في هذه الدراسة الوجه الايجابي لنظام التقييم في الإسلام أولاً، ثمّ نستعرض الوجه السلبي لهذا النظام ثانياً.

الوجه الايجابي لنظام التقييم

يجعل الإسلام (التقوى) و(الاستقامة) على حدود ا وصراطه المستقيم الأساس في التقيم، ويعتبر (التقوى) هي المعيار والميزان الذي يجب علينا ان نترك به الأفراد والفئات والجماعات، وهو الغاية التي يطلبها الإنسان في طريقه للكمال إلى ا تعالى.

يقول تعالى في آية سورة الحجرات، موضوع هذا البحث: «إنّ أكرمكم عند ا أتقاكم» وهي صريحة وواضحة في ان ا تعالى جعل (التقوى) أساساً للتفاضل والموارثة والتقديم والتأخير بين عباده، والغاية التي يطلبها الإنسان في طريقه للكمال وان القيمة ما كان عند ا قيمة: وهذا النظام للتقييم (عند ا) «إنّ أكرمكم عند ا» ونظام التقييم عند ا قد يختلف عمّا بأيدي الناس من أنظمة ووسائل للتقييم.

التقوى أساس البنيان

وجعل ا تعالى (التقوى) الأساس الذي يجب علينا ان نقيم عليه كل بنيان لنا في الحياة، من البنيان السياسي، إلى الحركي، إلى الاقتصادي، إلى العائلي، إلى العلاقات الاجتماعية وكل بنيان للإنسان، يعتمد التقوى، فهو يقوم على أساس ثابت ومتين، وكل بنيان لا يقوم على هذا الأساس، فهو على شفا جرف هار، لا يعلم الإنسان متى ينهار تحت قدمه، يقول تعالى:

«أفمن أسس بنيانه على تقوى من اله ورضوان خير أم من اسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنّم وا لا يهدي القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم وا عليم حكيم» (التوبة 109 ـ 110).

القيم وضدّ القيم

وبناء على هذه الحقيقة الهامة وهي انّ الهدى من ا لا غير، فإن القيم ماكانت من عند ا وما لم تكن عند ا قيمة فليس بقيمة، وفي ضوء ذلك نستطيع أن نحدد القيم بما يحبه ا وضد القيم بما لا يحبه

ا فما أحب ا قيمه، وما لم يحبه ا ضد القيمة.

ولننظر إلى طائفة من القيم على ضوء القيم في القرآن.

القيم عند ا

«إنّ ا يحب المحسنين» (البقرة/195 ـ المائدة /13).

«إنّ ا يحب التوابين ويحب المتطهرين» (البقرة/222).

«فأن ا يحب المتقين» (آل عمران/76).

«وا يحب الصّابرين» (آل عمران/146).

«وا يحب المتوكّلين» (آل عمران/159).

«وا يحب المقسطين» (الحجرات /9 ـ المائدة /42 ـ الممتحنة /8).

«وا يحب المطهّرين» (التوبة/ 108).

«إنّ ا يحب الّذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنّهم بنيان مرصوص» (الصف /4).

ضد القيم عند ا

«إنّ ا لا يحب المعتدين» (البقرة/190).

«وا لا يحب الفساد» (البقرة205).

«وا لا يحب كلّ كفّار أثيم» «البقرة/276).

«فإن ا لا يحب الكافرين» (آل عمران /32).

«وا لا يحب الظّالمين» (آل عمران /140، 57).

«إن ا لا يحب من كان مختالاً فخوراً» (النساء/36).

«إن ا لا يحب من كان خواناً أثيماً» (النساء/107).

«لا يحب ا الجهر بالسوء من القول» (النساء/148).

«وا لا يحب المفسدين» (المائدة/46).

«إنّه لا يحب المسرفين» (الأعراف/31، الأنعام/141).

«إنّه لا يحب المستكبرين» (النحل/23).

«لا تفرح إنّ ا لا يحب الفرحين» (القصص/76).

التقوى وآثارها ونتائجها في القرآن

التقوى هي الاستقامة على صراط ا المستقيم، والالتزام بحدود ا. وفيما يلي نشير إلى بعض خصائص ومقومات وآثار التقوى من خلال القرآن.

1 ـ تعتمد التقوى (التوحيد) و(الإيمان بالغيب) و(الإيمان برسالات ا) (أساساً وقاعدة) يقول تعالى: «الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتّقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يؤقنون» (البقرة/1 ـ 4).

2 ـ وهو خير ما يحمله الإنسان من الزاد من الدّنيا إلى الآخرة.

«وتزودوا فإن خير الزاد التّقوى» (البقرة/197).

3 ـ والتقوى من أفضل وأبرز مصاديق البر والإحسان في حياة الإنسان.

«ولكن البر من اتقى» (البقرة /189).

وهي قرين البر في القرآن.

«وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان» (المائدة/2).

وهي قرين العدل.

«أعدلوا هو أقرب للتّقوى واتقوا ا» (المائدة/8).

وقرين الصدق «أولئك الذين صدقوا واُولئك هم المتّقون» (البقرة/177).

وقرين الاصلاح.

«فمن اتّقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (الأعراف/130).

4 ـ والتقوى لباس تستر الإنسان من الذنوب والسيئات كما يستر الثوب الجسم من الاذى والضرر ولباس تستر سوءات الإنسان كما يستر اللباس عورة الإنسان.

«يا بني آدم قد انزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات ا لعلهم يتذكرون» (الاعراف 26).

5ـ والمتقون هم اولياء ا.

«ان اولياؤه إلاّ المتقون ولكن اكثرهم لا يعلمون» (الانفال 34).

6ـ وا مع المتقين، ولهم في حياتهم معية ا تعالى، وهي أعز ما يمكن ان يكسبه الإنسان في حياته.

«ان ا مع الذين أتقوا والذين هم محسنون» (النحل 128).

7ـ ولا يعرف المتقون في دنياهم خوفاً، ولا حزناً، ويرضون بكل قضائه وقدره، فلا يجد الخوف والحزن إلى نفوسهم سبيلاً.

بقوله تعالى:

«فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (الاعراف 35).

8ـ والعاقبة للمتقين.

«فاصبر ان العاقبة للمتقين» (هود 49).

9ـ «وأزلفت الجنّة للمتقين» (الشورى 90).

«ان للمتقين مفازاً حدائق واعناباً» (النبأ 31).

10ـ وبالتقوى ييسر ا تعالى أمور عباده وجعل ا تعالى التقوى سبيلاً لييسر امور العباد عليهم.

«وأما من أعطى واتّقى وصدّق بالحسنى فسنيسّره لليسرى» (الليل 5).

«ومن يتّق ا يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكّل على ا فهو حسبه انّ ا بالغ أمره

قد جعل الله لكلّ شيء قدرا» (الطلاق 2 ـ 3).

11ـ وبالتقوى يفتح الله تعالى بركات السماء والارض على عباده.

«ولو أنّ اهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض» (الاعراف 96).

12ـ وبالتقوى يطرد الله الشيطان عن الإنسان ويذكره ويبصره، ويشعر بخطر الشيطان.

«ان الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون» (الاعراف 201).

13ـ وبالتقوى يتقبل الله تعالى الاعمال من عباده «انّما يتقبل الله من المتّقين».

14ـ والتقوى من مصادر الوعي والبصيرة في نفس الإنسان «واتّقوا الله ويعلمكم الله».

15ـ والتقوى فرقان بين الحق والباطل في النفس، ولا يلتبس أمر الحق والباطل على الإنسان إذا اخذ بالتقوى.

«يا أيّها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً» (الانفال 29).

16ـ والتقوى تبصر الإنسان بآيات الله، وتذكره بالله تعالى:

«انّ في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والارض لآيات لقوم يتّقون» (يونس 6).

17ـ وبالتقوى يكفر الله تعالى سيئات الناس.

«ومن يتّق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له اجرا» (الطلاق 5).

18ـ وبالتقوى ينجي الله تعالى المتقين من نار جهنم.

«ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً» (مريم 72).

19ـ وبالتقوى والصبر يدفع الله عن المؤمن كيد الظالمين.

«وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً» (آل عمران 120).

20ـ وبالتقوى يعد الله تعالى عباده بالنصر في ساحات القتال.

«بلى ان تصبروا وتتقوا يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين».

21ـ والتقوى من «عزم الامور».

«وان تصبروا وتتّقوا فانّ ذلك من عزم الأمور» (آل عمران 186).

العلاقة بين الجوانب الثلاثة في آية الحجرات

والجوانب الثلاثة التي في آية الحجرات يرتبط بعضها ببعض فإن (الجانب التكويني) وهو اختلاف الشعوب والقبائل والأقوام وهو مفتاح الجانب الوظيفي يتيح الفرصة للناس للتعارف واللقاء وتبادل القيم والأصول والأفكار والكفاءات على أساس من الانفتاح والانتقاء.

و(الجانب الوظيفي) مفتاح الجانب القيمي في هذه المسألة فإن التوظيف الصحيح لحالة التعدد في الشعوب والقبائل والأقوام في أمر التعارف واللقاء الحضاري يؤدي إلى تقويم سلوك الإنسان، وتقويم السلوك و ضبط السلوك على أساس من (التقوى).

إذن هذه الجوانب الثلاثة في آية الحجرات يرتبط بعضها ببعض في التحليل الدقيق لهذه المسألة.

الأمّة الواحدة

«إنّ هذه امتكم أمّة واحدة وأنا ربكم فاعبدون».

هذه رؤية جديدة للعالمية يقررها القرآن الكريم على أساس جميع الشعوب والأقوام والقبائل كلها في أمة واحدة تلتقي عندها الأقوام والشعوب جميعاً.

والأمة الواحدة تنطلق من الاعتراف بتعدد الشعوب والقبائل والأقوام، لأرض الشعوب والأقوام، ولكن بتوظيف صحيح لحالة التعدد في الشرائح البشرية على منهج «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه».

والأمة الواحدة حالة حضارية قائمة على اساس (التوحيد) و(التقوى).

«وأنا ربكم فاعبدون».

الوجه السلبي لنظام التقييم

ولنظام التقييم في الإسلام وجه آخر سلبي، ولا يكتمل من دونه نظام التقيم كنظام شامل متكامل.

وفي هذا الوجه يهدم الإسلام اسس ومعايير التقييم التي تعتمدها الجاهلية في التقديم، والتأخير، والحسم، والفضل، والحب، والبغض، والتقريب، والأبعاد والولاء، والولاء، والبراء، والدفاع، والهجوم.

وهذه الاُسس تقوم على أساس الانتماء القومي والطبقي، والعشائري، والأقليمي لا التوحيد والتقوى والحق، ويشجب الإسلام اعتبار هذه الأمور أسساً ومعايير للتقييم وفيما يلي ننقل طائفية من النصوص الإسلامية في هذا الشأن.

1 ـ روي المفسرون في شأن نزول هذه الآية الكريمة عن ابن عباس أن في يوم فتح مكة أمر النبي صلى ا عليه وآله بلال حتى علا ظهر الكعبة، فأذن، فقال، عناب بن اسيد بن أبي العيص: الحمد الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم، قال الحارث بن هشام: ما وجد محمد صلى ا على وآله غير هذا الغراب الأسود مؤذناً، وقال سهيل بن عمرو: ان يرد ا شيئاً يغيره، وقال أبو سفيان إنى لا أقول أخاف ان يخبره به ربّ السّماء.

فأتى جبرائيل النّبي صلى ا عليه وآله وأخبره قالوا فدعاهم وسألهم عما قالوا فاقروا، فأنزل ا تعالى هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنسان والتكاثر بالأموال، والازداء بالفقراء، فإن المدار على التقوى(1).

2 ـ وخطب رسول ا صلى ا عليه وآله والناس في مكة فقال: «يا ايها الناس إن ا قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية

وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم على ا وفاجر شقي هين على ا».

3 ـ وخطب رسول ا المسلمين بمنى أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس إلاّ ان ربكم واحد، الا انّ أباكم واحد، الا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي ولا أسود على أحمر، ولا أحمر على أسود إلاّ بالتقوى، الا هل بلغت قالوا نعم قال: وليبلغ الشاهد الغائب.

4ـ ومن حديث آخر عن رسول ا (ص):

إن الله لا ينظر إلى أحسابكم، ولا إلى أنسابكم، ولا إلى أجسامكم، ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم، وأحبكم إليه أتقاكم(3).

5 ـ وعن ابن جعفر الباقر عليه السلام قال لما كان يوم فتح مكة قام رسول الله صلى الله عليه وآله في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنكم من آدم، وآدم من طين، ألا وان خيركم عند الله وأكرمكم عليه اليوم أتقاكم وأطوعكم له، الا وان العربية ليست باب لأحد، ولكنها لسان ناطق فمن قصر به عمله لم يبلغه رضوان حسنه الا وان كل دم أو مظلمة أو اخنة كانت في الجاهلية فهي تظل تحت قدمي إلى يوم القيامة.

العصبية والحمية

وفي مقابل (العالمية) و(الانفتاح) التي يدعو اليها الإسلام تقع العصبية والحمية الجاهلية.

وهي حالة الانغلاق القومي والعشائري والفئوي وتحيز الإنسان إلى قومه وعشيرته وفئته في حق أو باطل، وهي حالة معاكسة لحالة (الأمة الواحدة) التي يدعو اليها القرآن من ناحيتين، في الانفتاح أولاً وفي إتخاذ التقوى والحق مقياساً ثانياً، وهذه هي حالة (الحمية الجاهلية) المذمومة في النصوص الإسلامية.

فليس من العصبية ان يحب الإنسان قومه، وليس من العصبية ان يعينهم أو يدفع عنهم، ولكن من العصبية أن يعين الإنسان قومه في ظلم ويحبهم ويدافع عنهم على باطل.

روى الزهري قال سئل علي بن الحسين عليه السلام عن العصبية فقال: العصبية التي يؤثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم(1).

وروت بنت واثله بن الأسقع انها سمعت أباها يقول قلت يا رسول اللهﷺ ما العصبية؟ قال: أن تعين قومك على الظلم .

المصدر :دار الاسلام